المحاضرة 05: البلاغة والاتصال الأدبي

البلاغة العربية ونظرية التواصل الأدبي، ذات المنحى التجريبي والمنهج الوصفي. في دراستها لكل ما له صلة بسياق الإنتاج وسياق الاستقبال. ومن ثم فإن نظرية الاتصال الأدبي " نظرية لأفعال التواصل الأدبي وللأشياء وللظروف وللافتراضات وللنتائج، التي لها أهمية بالنسبة لهذا التواصل. ومن وجهة نظر شكلية يتعلق الأمر كل مرة بتحليل علاقة النص– السياق.

1. فكرة مقتضى الحال

لقد ربط الدكتور محمد العمري بين البلاغة العربية ونظرية التواصل الأدبي، حيث ركز على الكشف عن اهتمام النقاد والبلاغيين العرب بالمتقبل في تحديد نجاعة الكلام البليغ وعملية التواصل الأدبي مع أهمية فكرة مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية، بوصفها عنوانا للعلاقة بين الخطيب والمستمع، فالبلاغيون العرب وإن لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل والمتلقي حاولوا أن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال، ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين.

فكرة مقتضى الحال إنما أتت في إطار التنظير لبلاغة الخطابة، لذا ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما.

فالمقام هنا يتسع ليشمل الخطيب والخطبة:

- الخطيب: من حيث كونه متخصصا في علم من العلوم، مثل علم الكلام؛
- الخطبة: من حيث الموضوع (في تخصص الخطيب/ في غير تخصصه)؛

والمراعاة تكون في استخدام وعدم استخدام المصطلحات الخاصة.

تراعي البلاغة العربية عموما حال السامع، خاصة في الخطابة، وقد دعاه ، البلاغيون باسم (مقتضى الحال)،" وهو الاعتبار المناسب " ومعنى ذلك أن الخطيب يراعي المقام الذي يصاغ فيه كلامه، وقد حدد السكاكي المقامات بقوله: لا يخفى عليك أن المقامات متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل.

ومقتضى الحال أو المقام هو ما يسميه المحدثون بـ (سياق الحال) أو(سياق المقام)، ومن أوضح تعريفاته هو : " كل ما يحيط باللفظ من ظروف تتصل بالمكان أو المتكلم أو المخاطب في أثناء النطق، فتعطي اللفظ دلالته، وتوجهه باتجاه معين، فهو إذن مجموعة العوامل والعناصر المحيطة بالنص من خارجه التي تعين على فهمه وتفسيره" .

من خلال التعاريف السابقة نستنتج أن مقتضى الحال/ المقام، يضم كل ما يحيط بالعملية التواصلية من ظروف مكانية، والموقف الذي يصدر فيه الحدث الكلامي، إضافة إلى المتكلم والمخاطب معا، لكن البلاغيين العرب ركزوا – غالبا– على الموقف وعبروا عنه بـ (المقام) كما ركزوا على حال السامعين، واشترطوا على الخطيب أن يوازن المعاني مع أقدار المستمعين ومقاماتهم.

من خلال ما سبق ندرك أن علماء العربية قد ركزوا في التواصل على المقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومقتضى الحال عندهم يحددونه وفق النقاط التالية:

- ✓ موازنة أقدار المعاني بأقدار المستمعين؛
- ✓ موازنة أقدار المعاني بأقدار الحالات؛
- ✓ الموازنة بين الألفاظ وأقدار المستمعين؛

- ✓ معرفة المقامات والتفريق بينها، واختيار المعاني والألفاظ حسب المقام (تشكر، تهنئة...)؛
- ✓ حسن مؤاخاة معاني النحو على حسب الأغراض التي يصاغ فيها الكلام.

ويمكن تقسيم المقام إلى قسمين: خارجي وداخلي:

أ/ **الخارجي:** وهو كل ما هو خارج ذات المتكلم وعناصره هي:

- المتلقي:
  - طبقته العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسة...
  - ردود أفعاله : وتشمل الرفض والقبول...
- وسيلة الاتصال: ويقصد بها اللغة، والوسيلة هي المشافهة أو المكاتبة.
- السياق العام: ويقصد به السياق الاجتماعي والسياسي...
- طبيعة الموضوع: قد تكون سياسية، اقتصادية، اجتماعية... ويراعى في ذلك المتلقي.

ب/ **الداخلي:** ويراعى فيه مقاصد المتكلم، وقد تكون سابقة أو طارئة.

ويمكن تجسيد هذا التقسيم في المخطط التالي:

مخطط أقسام المقام

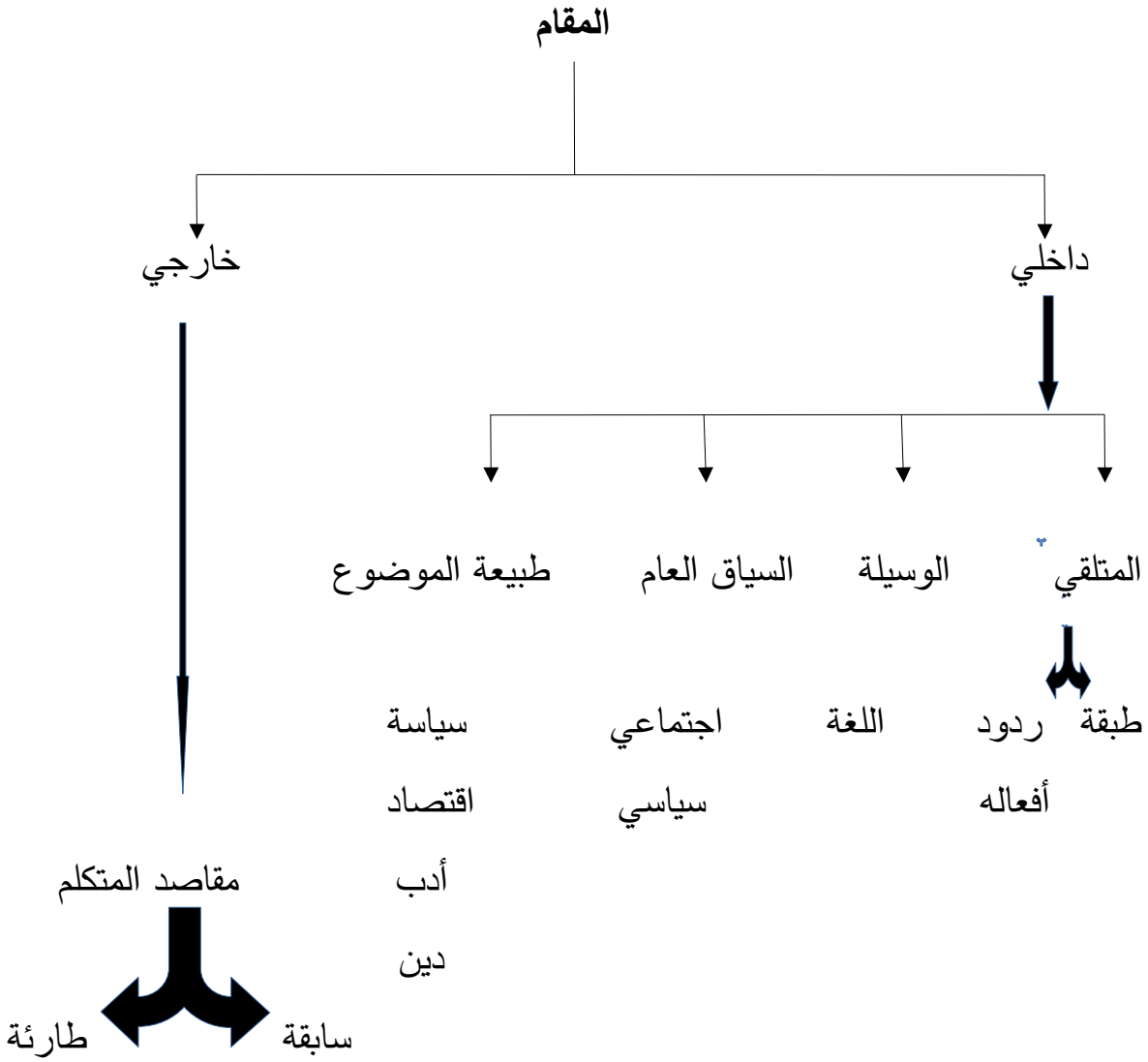

2. الصوت، الإرسال والاستقبال

تختلف العلامة اللغوية المستخدمة فيما بين الاتصالين، فهي في الاتصال الشفهي (الصوت)، والاتصال الكتابي (الخط) وثمة فروق جوهرية بين هاتين العلامتين، إذ تتصف العلامة الصوتية بالتتابع الزمني، بينما العلامة الخطية بالتتابع المكاني.

كما أن هناك خاصية أخرى بين الاتصالين (الحضور/ الغياب)، ذلك أنه في الاتصال الشفهي وجها لوجه، يكون كل من المرسل والمستقبل حاضرا. أما في الاتصال الكتابي فإن هذين الطرفين يتبادلان الحضور والغياب:

- فن الإرسال (الكتابة): الكاتب حاضر / القارئ غائب؛
- فن الاستقبال (القراءة): الكاتب غائب/ القارئ حاضر.

وثالث أبرز الخصائص يتصل بحاسة التلقي، إذ أن السمع حاسة تلقي الصوت، والبصر حاسة تلقي الخط. وتختلف هاتان الحاستان في طريقة التلقي والإدراك، فبينما التلقي البصري يقاضي الابتعاد عن الصورة، فإن التلقي السمعي يقتضي اقترابا من الصوت.

والتوجه الواضح للبلاغة العربية نحو الاتصال الشفهي يأتي لاستجلاء ملامح صورة الصوت (إرسالا واستقبالا)، حيث اقتضى التأسيس البلاغي للاتصال الشفهي التركيز على الصوت في مستويات ثلاثة (الحرف، اللفظ، التركيب) من حيث:

- مخرجه: صحة وخطأ، قريبا وبعيدا
- درجته: قوة وضعف
- تركيبه: تلاحما وتنافرا

كان الحرف المستوى الصوتي الأول الذي عنيت به البلاغة العربية، في إطار تنظيرها لبلاغة الخطاب، فحددت صفات جودته، متمثلة في صحة المخرج ، وتكميل الحروف، وجهارة النطق به. فمن ملامح جودة الصوت:

- إرسالا: صحة النطق ووضوحه، الجهارة؛
- استقبالا: صحة السمع ووضوحه، الهيبة.

أما المستوى الصوتي الثاني (اللفظ): حيث أن فصاحة اللفظ بتلاؤم حروفه وفصاحة التركيب بتلاحم أجزائه مهمان في الاتصال الشفهي، إذ أن التنافر يجعل النطق ثقيلا، بينما التلاؤم والتلاحم يجعلان النطق خفيفا وسهلا. فمن ملامح جودة الصوت:

- إرسالا: الخفة والجريان؛
- استقبالا: الاستحسان ، سهولة الحفظ

بيد أن هناك بعدا صوتيا آخر جد مهم وهو الأداء أو التلوين الصوتي، وذلك لدوره المهم في توجيه الألفاظ إلى هذا المعنى أو ذاك، فمن ملامح جودة الصوت:

- إرسالا: الموسيقى والإيقاع
- استقبالا : اللذة والطرب، تمكن الحفظ والتذكر، الاسترجاع.

وهو ما يمكن أن نعده الدرجة العليا في سلم بلاغة الاتصال الشفهي.

بلاغة الاتصال الأدبي الشفاهي